

# النجف

## مصدر النبوغ ومنطلق النوابغ

الشيخ محمد الكرعي (\*)

تحتل بعض المدن في العالم موقعية كبرى في التاريخ، ذلك لأنه مرّ على تخطيطها آلاف السنين، ولأنها تحتضن بين جدرانها بقية من آثار متلاشية، كانت في باكورة عملها مائلة على سوح العيان، يذكرها الذاكر، ويتمثل بها المتمثل، وهذا هو تمام قيمتها فحسب. أما النجف فهي وان فرضت نفسها على الوجود على رغم من ساءه ذلك واحتلت موقعية كبرى في العالم الإسلامي، بل العالم كله، إلا أنها لم تستوف القليل من حقها. فإن بابل إن خلدتها أسدها، ومصر أهرامها، ولبنان أرزها، فإن النجف يجب أن تهز أعطافها تيهاً بفضاحلها الأسود، ونوابغها الصيد، ورجالها الأفذاذ، الذين نشروا منها العلوم والمعارف والبطولات والآثار الفاتنة حد الإحصاء، وفوق كل هذا وذاك، يجب أن تفتخر بأسدها الوحيد، وبطلها المغوار، وربانها العظيم، ولاهوتيتها الخطير، مقيم صروح الإنسانية، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام - هذا مجمل ما توفر لديها - وأما التفصيل:

### الحوزات العلمية في النجف:

تمتاز الحوزات العلمية في النجف على كافة الحوزات العلمية في العالم بالضبط:

- 1- بأنها واجهت من أعنات الزمان بها وبرجالها، ما لم تواجه به أية حوزة علمية في أي دور من أدوار التاريخ، ومع هذا الأعنات أخذت تستمر بدراستها استمراراً مدهشاً، أعربت عنه آثارها الخالدة في الشرق والغرب.
- 2- فخامة الفكر العلمي في المسائل النظرية، وكل من يقارن بين الآثار المتقنة النجفية وآثار غيرها من الحوزات يعرف ذلك بسهولة، فإن سائر الحوزات لم ينتج إلا القليل من المتاع الثمين.

(\*) عالم، كاتب، وأديب شاعر.

عن: مجلة العدل النجفية س 3 ع 6 و 7 في حزيران 1968م.

٣- التنوع في كافة الفنون حتى الأسرار والطلاسم، والحوزات العلمية الباقية إنما تعاني ما تعارف عندها من معقول أو منقول ولا تتجاوز ذلك إلى ما سواه.

٤- كثرة التأليف والتدوين، ولو أن الحوادث المتناوبة والغارات المشنونة وفلتات الزمان الهجامة رحمت هذه المدينة وما تحتفظ به من آثار علمية، وهكذا مقدروا التراث العلمي لو صرفوا همهم في صونه ونشره لكان محصول النجف رقماً واسعاً جداً تقل مساحتها عن القيام بكمياته الوافرة وهذا الأمر بتلك الخصوصيات معدوم النظير في غير النجف.

كيف تستطيع النجف أن تحتفظ بتراثها العلمي وهي كانت تواجه من الطغيان الموجه إليها ما تسد نهمته بأرواحها فضلاً عن تراثها، وكانت حالة محصلها المادية يرثى لها من الضعف والوهن والانهيال، فكانت الأرضة وسائر الحشرات المتلفة وغير الحشرات رقيبها الملازم، لإبادة آثارها وقلعها عن صفحة الوجود.

ولما برز دور الطباعة إلى ساحة العيان، بقيت محرومة منه مئات السنين، ولما وصلت يدها إليه وصلت منه إلى واهن لا يسمن ولا يغني، وأقل شاهد عليه هذه المطبوعات الحجرية المألوفة للرفوف وخزائن الكتب المشوهة في نفسها، العابثة بكرامة المؤلف وتأليفه بل وبكرامة القرطاس والمداد.

والى الآن -والطباعة في زهرة نشاطها- لم يوفق للطبع الجميل من كتبها إلا الرقم الضئيل. وكم حملت مكتبة إثر مكتبة، كلها من قسم المخطوطات، بأسعار متواضعة من بيوت النجف العلمية إلى خزائن الغرب وهي اليوم مكدسة فيه لا يعرف عنها النجف حتى أساميتها المجردة. وواحدة من هذه العلل كافية في إتلاف كل تراثها، ولم تواجه أية حوزة علمية في أي مكان من ناحية تراثها العلمي بعضاً مما واجهته النجف ومع ذلك فالمحفوظ من الآثار التي دوت في ساحتها رقم واسع جداً متنوع في أبحاثه كثير بفنونه وعلومه.

هذا الحديث كله عن أمس النجف الذي كان المدرسون فيه فطاحل المجتهدين وأعظم المفكرين، والمتعلمون خلاصة أهل الفضل والكمال الذين لا يعينهم سوى التحصيل ومهما قسا عليهم الوقت.

سمعت من المرحوم والدي وهو يتحدث عن أستاذه العلامة الفذ الشيخ محمد حسين الأصفهاني إن أستاذه الموما إليه قال له: لم يفتني منذ حضرت دروس الآخوند الخراساني إلى حين وفاته إلا بحث ليلتين، أما ليلة منهما، فقد كنت فيها أرمد شديد الرمذ بحيث أزعجني وضعي حتى عن الاستقرار في منزلي، وأما الليلة الأخرى فقد أرسلت السماء فيها شأبيب المطر حتى أحالت طرق النجف مائجة بمياهها، فأيقنت في نفسي تعذر حضور الأستاذ والتلاميذ في مثل هذه الحالة، وصبيحة غد فهمت أن الآخوند على كبره سنأ ومقاماً خاض تلك الوحول

معتمداً على بعض المساندين له، وجاء على مواعده من كل ليلة، وألقى دروسه على قلائل ممن كلف نفسه الحضور في مجلس درسه.

ومثل هذا التصميم الذي لا يتشظى بالعوامل المهمة مفقود هذا اليوم في النجم كفقده أمثال أولئك الأساتذة وأولئك التلاميذ في كل حوزة من حوزات العالم الإسلامي بل العالم كله. وهناك هنات أخرى يجب على أهل الصلاحيات القائمين بأعباء الحوزات العلمية رفعها بكل مجهود يستطيعون بذله في حراسة الدين وأهله.

منها صرف همهمهم في المحافظة على النخبة الصالحة من رجال الروح وتوليد أمثالهم، بتعبيد الطرق أمامهم، فإن البيوت العلمية العريقة خلت من كل روعي فيها أو كادت، والناشئة المستعدة أخذت طريقها إلى التوظيف لفقدان الضمان في المدرسة الروحية على عظيم ما يجبي لها من مال بشتى الوجوه، وإذا بقي الوضع على صورته من كثرة المعممين الفارغين وقلة المحصلين من أهل الدين وتوزيع المال على الغث أكثر من السمين، فما هي إلا ليلة أو ضحاها لبقاء الدين نفسه في أحناء العالم المسلم.

ومنها: المواظبة التامة على مادة الدرس ولون التدريس، وتقليل أوقات التعطيل، وإتقاد المستعدين من هذا الارتباك الذي يواجهونه في الحوزات، فلا مادة الدرس منقحة ولا لون التدريس معلوماً، ولا المدرس متهيئاً، ولا الغاية النهائية معروفة، ولا ضمان المعيشة له برنامج خاص، وإذا لم يقض على هذا الارتباك قضت الأوضاع المسيطرة على كل شيء، كما فعلت في أكثر الأشياء.

ومنها: الوقوف أمام مجهولي الهويات الطالعين ببزة الروحانيين، والرموزين من هذا القبيل، الذين اتخذوا هذه الظاهرة وسيلة اقتناص من ناحية وتخريب من ناحية ثانية، فإن هذين الفريقين من المعاول الهدامة لبناء الدين ومثال سوء ظن الناس بكل روعي على الإطلاق.

### المثل الرائعة والأخلاق الدينية البارعة

كل المتدينون المترسمون لخطى أهل بيت النبوة، يتسابقون إلى التحلي بأخلاق هدايتهم، فكانت الفضائل في جميع شعبها مورد تنافس بين أهل الدين، سواء في ذلك ما يتعلق بالبدن أم بالمال، ولهذه النزعة كان في أطباق أهل العلم أخلاقيون كبار، مربون عظام، تشكل من طريقهم حوزات دراسية خاصة تروج بالقدسيات المرموقة حتى أثرت هذه النزعة الرائعة على السلاطين وولاتهم، فكانوا يندفعون من صميم قلوبهم إلى إشادة المساجد العظيمة والمدارس الرفيعة وسائر الخدمات الاجتماعية.

وإذا لا حظنا دفتر الأوقاف في شتى الجهات، وجدنا الكثير الجزيل من منقول وغير منقول قد رصده أهله بإرشاد من الهداة الأخلاقيين إلى المنافع العامة أو الخاصة، بفريق خاص وهدف معين، وإلى الآن لا تزال هذه الأوقاف باقية، وإن كان العصر المادي قد احتجزها لنفسه وصرف ريعها خارج منظور الواقف، ولم يبق من بينها إلا القليل الدارج على وجهته التي أرصد لها. إذن بالأحرى إن تطلع النجف في يومها ذلك طلعة ملكوتية، وإن يكثر أهل الورع والتقوى والفضائل النفسية بين أطباق أهلها، خاصة أهل العلم فيها، ولا يستكثر على جامعة يكون زعيمها أمثال الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محمد حسين الكاظمي والشيخ محمد طه نجف والآغا رضا الهمداني أن تبني لنفسها مدينة فاضلة فلا ترى فيها إلا المتعهد المتعبد المحسن المواسي الساعي بالخير الفاعل للمعروف.

وأنا بدوري على صغر سني أدركت من ذلك الزمان المنصرم، فكانت البيوت العلمية تنعقد نواديها باستمرار، وما أهل نواديها سوى الأخيار الأبرار الذين رضوا من العيش بما تيسر، وجمعوا أنفسهم لخدمة الناس بكل مجهودهم، وما كان حديثهم يدور -أنى كانوا- إلا على الفضائل والتبسط في شرحها وكيفية التحلي بها، ولقد كان الحرم والصحن الحيدري والمساجد تعج بالمصلين والمتهجدين والذاكرين الله كثيراً، كما كانت المحافل الحسينية على طول الزمان من أكثر الباحات تجمعاً يسرد على منابرها الوعظ والإرشاد والتعاليم الدينية الأخلاقية. أما مع تمام الأسف وبفضل عصر الذرة لم يبق من ذلك عين ولا أثر فلا أخلاقي يقتدى به ولا رباني ترسم خطواته.

المدارس منفصلة من أهدافها، والمحافل تفقد بهاءها الذي كان يسود عليها، وبالأخرة أصبحت الديار بعيدة عن قدسيته، بتجافي أهلها عنها وانصرافهم إلى قشريات المادة السوداء.

### البطولات الناشئة عن الإيمان بالمبدأ:

من الطبيعي المسجل إذا قلنا إن المؤمن لا يكون جباناً، لأن الإيمان بأي مبدأ يفرض هو بنفسه قوة جبارة تدفع بصاحبها إلى أن يخوض من أجله كل مشقة حتى يفرضه على الوجود، ومن هنا استطاع نبي الإسلام أن يبني دينه بعدة محدودة من المؤمنين وإن تتوالى انتصاراته في الآونة بعد الآونة بعد أن كان مواجهاً بأقصى المبارزات وأحدها، وما اندلعت الشجاعة من جميع أطراف علي عليه السلام إلا من ينبوع إيمانه الراسخ بما يعتقد، وهذا المبدأ هو الذي ركز الحسين وأصحابه في ميادين الصف فكان الواحد منهم كالجبل الراسخ لا يقلق ولا يميل.

وهذه الروح لما تبطنها العلماء المقدسون كانوا من طريقها أشجع من كل شجاع في مرابطة مواقفهم حتى النفس الأخير، فكان النهي عن المنكر له أثر، والأمر بالمعروف مشفوعاً بالعمل،

ومن هذا الثبات المدهش استطاع الدين من طريق أهله أن يرغم مناوئيه على احترامه وتجليل منتسبيه، وإن يتنازل الزعيم المستبد لقبول فتوى المجتهد، وما ركز الدستور بين الحكومات المعنية وقرر القوانين الأساسية على طبق برامج الإسلام، إلا سطوة إيمان أهل العلم على الدكاتوريين، وما دحر الاستعمار وأثره السيئ عن ديار الإسلام بعد الحرب العالمية الأولى إلا انطلاق المؤمنين للترفيه عن أوطانهم وإيمانهم.

أما لما ذابت تلك الروح فلا إيمان بمبدأ ولا عقيدة بمرام حق، أخذت البلدان الإسلامية تنهار الواحدة بعد الأخرى من دون سلاح جرد عليها أو قوة زحفت إليها، وإنما هو فشل التحلل العقائدي والميوعة في الأخلاق، وكفى بهذا الداء داء فاتكاً، ولا ينجع مع هذا الفشل الروحي حماس الشاعر وفقهه الناطق، كما لم ينجع بالفعل لان الكلام الفارغ هراء في هراء.

وليت ان البلاد الإسلامية لما أعطت دينها من يدها بزعم مثقفها إن العلم طرد الدين، احتفظت بعزتها واستقلالها وكيانها، وإن الثقافة العاطلة عن حماية أهلها أشقى من الجهالة الجاهلاء بحكم الطبيعة.

### الدجل والانتهاز من أعظم الموبقات الدينية والاجتماعية:

الدجل مرض أخلاقي منشؤه هواية الاتصال بالهدف الشخصي والميل النفسي من اقصر طريق وبلا مشقة، ولا ريب أن ذلك يستلزم ارتكاب خيانات جمة وجنابات مهمة لأن مخالفة السير الطبيعي تستدعي كل ذلك، والنفاق وهو التذرع بظاهرة الحق للتسرب منها إلى الباطل قد يتم الوجود في البشر وكل ما كثر في أمة دل على ارتكاسها في الجهل، وبعدها عن الإيمان بالمبادئ القويمة، وقد واجه نبي الإسلام في الطبقة الأولى من معاصريه هذه الروح التي زرعتها الجاهلية الجاهلاء، غير انه ﷺ لما ندد بهذا الفريق المتلون اخذ المؤمنون يتحامون المنافقين حتى من كل فيه أقل شائبة من النفاق وبنوا لصدق اللهجة والصراحة أرفع كيان وهذا المعنى هو الذي خلق من ناس الجاهلية عماراً وأبا ذر والمقداد وحجر بن عدي وأشباههم كما خلق الكمل الأفاضل في العلماء، فكانوا يفعلون الخير العميم ولا يتظاهرون بفعله، حذراً من تلوثهم بالرياء المتلف لإخلاص عملهم، والصحة في العمل ملاك أثمار العمل ولهذا كانت مساعيهم موفقة وأعمالهم مركزة، ولا وجود للث فيهم بالمرة، وكان موقف الحق غير مشوب بموقف الباطل وأهل ذلك الجانب ممتازين عن أهل هذا الجانب.

غير أن الانهيار الروحي لما لا بس الكثير من المنتسبين للدين، فشى النفاق في الطوائف الهادية للناس، فاختل توازن الحق بين أهله، ودخل المرموزون في حوزة الواقعيين فكان من نتيجة ذلك سوء ظن الناس بهداتهم، لأن الدجل ينكشف بعد حين قطعاً فيكون مشار ريب في

الآخرين وسوء ظن الناس بالهداة مما يفرق جماعات الناس ويحيلهم إلى أوزاع، والتفرق من أقل نتائجه السيئة أن مئات ملايين لا تقاوم عشرة أفراد متصامدين بالضبط خذ لك مثلاً قضية الخوارج في العهد الأموي فقد كان قليل من الخوارج يهددون الكثير الوفير من غيرهم بخطر التلاشي، وما ذلك إلا لواقعية الخارجي في نفسه ونفاق الملايين أمامه، وقس على ذلك الحالة السائدة اليوم عقائدياً واجتماعياً.

نرى ناطقنا يتفهبق بأننا ستمائة مليون مسلم ولكن الحقيقة إن حفنة من المجدين في تركيز منوياتهم أثرت على روح ستمائة مليون إنسان: صحيح نحن ستمائة مليون إنسان مسلم ولكن كما وصف الشريف الرضي مجتمع المقابر بقوله:

بادون في صور الجميع وإنهم متفردون تفرد الأحاد

### بم يستعيد المسلمون كياناتهم والمحقون حقوقهم؟

الإسلام ضرب مثلاً من نفسه على نفسه، بتعالیه تارة وانحطاط أهله أخرى، أما تعالیه فكان بالنخبة الصالحة من أهله حيث كان المسلم يذود عن دينه بعصاه فضلاً عن سيفه، وحيث كان الداعي له في صدر كتائبه لا قابلاً في كسر بيته، وحيث كانت العقيدة دخيلة قلب لا سمة ظاهر، فمتى وقف المسلمون في مناجزاتهم ومبارزاتهم ودخائل قلوبهم موقف المسلمين الأول عادوا كما كانوا أقوياء أعزاء، حافظين لحياتهم متدرعين بكراماتهم، منظمين بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الناجحة يخاف منهم ولا يخاف عليهم.

وأما التصفيق والتهاف وقوله: ليحيى وليمت وإشادة المحافل بسرد القصائد والكلمات فهو من شأن مجالس الأفراح والأعراس، لا من مقومات الأمة والمحافظة على الحرمة، وإصدار الفتوى المجردة والقبوع في البيوت من شأن العجزة المساكين لا الهداة القائدين، والدعاء بالنصر وراء العمل لإحراز النصر، ولو كانت الفتيا بمجرد ما والدعاء بمفرده من مؤمنات الحقيقة لاكتفى بهما محمد بن عبد الله ﷺ قبل كل أحد لمطابقة فتواه للواقع وقرب دعائه من الإجابة، لكنه لم يكتف بذلك لأن الميدان ميدان عمل متواصل وكفاح مر وتقدم مستمر.

### ومع كل الهنات والموجعات في العالم الإسلامي:

فالنصف بنسبته للوضع الدارج اليوم، يعد أم القرى للاندفاعات القوية التي تصدر منه، وتكون فيه فمعابده في حدود معابد اليوم عامرة، ومساجده دائرة، ومدارسه حاشدة، ومدرسه الله القائمون بوظائفهم الملقاة على عواتقهم من هذه الناحية، ومحافله الخطابية ببركة أنفاس أبي عبد الله الحسين عليه السلام مشعشة، ونواديه الأدبية حافلة بالأديب المتيقظ والأدب الحي، ومع ذلك كله

فالحركة الصحافية التي هي أكبر مدرسة سيارة للمعارف وأهم أداة في التعبير عن مقاصد الجماعات والأفراد والوسيلة الفذة لنشر الآراء وتسجيل البحوث العلمية واهنة ضعيفة في هذا البلد الذي من شأنه أن يصدر عشرات الصحف، وهو يفقد آحادها المعدودة على أن هذه الآحاد التي تنشر عنه هي نتيجة بجهود أفراد مخصوصين ولا منة للحوزة العلمية عليها بالمرّة<sup>(١)</sup>. وهذا الفراغ العلمي العقائدي الخطابى الشري الشعري لم يفكر قادة الحوزة في سده بما يقوم بشأنه.

### وختاماً:

فقد أضافت النجف إلى مزايا شرفها الآنف، بأن تربتها من أشرف ما خلق الله من تراب أرض حيث اضطمت أحنأؤها على هياكل قدس لا تحصى، بالألوف من إمام معصوم ولاهوتي عظيم ومقدس كريم وعالم عامل وإنسان كامل وعباد صالحين، ونفس اختيار المؤمن هذه التربة في حياته مدفناً له بعد مماته يشعر بان لها قدسية في نفسه مستمدة من بركات أمير المؤمنين والعلماء الربانيين الذين تشرفوا بجواره وافتخروا بقربهم من مرقد أحياء وأمواتاً.



(١) لنا تعليق على هذه النقطة سوف نورده في عدد قابل إن شاء الله، مع اعتزازنا الكبير بالباحث العلامة المحقق، وهو معذور لبعده عن لالنجف وصحافته حالياً.  
«التحرير»